المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية | المجلد:6/ العـــدد: 1 (2021)، ص 121- 141

نشأة الدولة الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعلاقتها بمفاهيم الحضارة والمدنية

The emergence of the Islamic State during the era of the Prophet, may Allah bless him and grant him peace, and its relationship with the concepts of civilization and urbanization

موسى جمعه سليمان الحبيب	سليم مفتاح عبدالعزيز عقيلة لاميلس*	سعيد جمعة حماد ميكائيل
أستاذ محاضراً بجامعة عمر المختار_ليبيا	أستاذ محاضراً بجامعة طبرق_ليبيا	أستاذ محاضراً بجامعة عمر المختار_ليبيا
Nokia281234@gmail.com	Dr.salim.M.lamels@gmail.com	Saeed111704marawa@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2021./02/16 تاريخ القبول: 2021/03./04 تاريخ النشر: .2021/04./30.

الملخص:

إن الرسول صلى الله عيه وسلم أسس طبيعة العلاقات الدولية، ففرض التسويات السياسية وعرض التسويات المالية وأجرى المعاهدات والهدن وأرسل المبعوثين والسفراء واستقبل الوفود وأجرى المحادثات والمراسم، وأهدى الهداية وأجاز الوفود، وجاهد في سبيل الدين والدولة، وسعى إلى سن كل ما يكفل قيام الأمم المتمدنة، حتى أنه قرر وجوب الإحصاء.. والحق أنه ليس هناك من أساليب التمدن ما لم يكن الإسلام في وقت ظهوره أصلاً له ، فمن تأمل ما حوى القرآن من آداب الاجتماع ومن طرق التمازح وأحكام الطبيعة وما ضبط من الحقوق وسن نظامات الحياة وماتلته به السنة النبوية من التعاليم وأنواع الإرشاد ومن تهذيب النفوس والأخلاق والإرشاد للأخذ بالأحسن فالأحسن وأحكمته من سنن الارتقاء والتمتع بضروب الحرية علم أن التمدن الإسلامي في إبان ظهوره قامت معه تلك الأعمال لتؤثر تلك التعاليم على المنتسبين للإسلام.

الكلمات المفتاحية: القيم الحضارية _ القيم الروحية _ النظم المدنية _ مفهوم الحضارة _ المدنية _ التمدن.

Abstract:

The Messenger, may Allah's prayers and peace be upon him, established the nature of international relation so, he imposed political settlements, offered financial settlements, made treaties and truces, sent envoys, ambassadors, welcomed delegations, held talks and ceremonies, gave gifts, sanction delegations, strove for the sake of religion and the state, sought to enact all that would guarantee the rise of civilized nations. even he decided the necessity of count.

In fact, there are no methods of civilization unless Islam at the time of its emergence was the origin of it.

Whoever contemplates what the Holly Qur'an contains of social etiquette, ways of joking and rules of nature, and what it set of rights and enacting life systems and what was supplemented by the Sunnah of the Prophet from doctrines, types of guidance, refining souls, morals and guidance in order to adopt the better then the best, and what it had legitimized from the ways of upgrading and enjoying all forms of freedom, knew that Islamic urbanization during its emergence, these works were carried out with it so that those doctrines influence those who are affiliated to Islam.

Keywords: Civilized Values_ Spiritual Values_ Civil Systems_ The Concept of Civilization_ Civil_ Urbanization.

• المؤلف المرسل: سليم مفتاح عبدالعزيز عقيلة لاميلس

مقدمة:

صحيح أن التمدن الإسلامي جرى مجرى التطور الطبيعي في كل شيء وسار سيراً تدريجياً إلىأن وصل إلى درجة معتبرة من التمدن, فمن لم يتأمل ذلك ولم يحط نظراً في الموضوع بما له وبما عليه لا بد أن تغيب عن عمله الموضوعية، ولكن الصحيح أيضا أن الترقي والعمران في العشر سنوات التي قضاها صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية قد وصل فيها إلى أحدث ما يعرف من الوظائف اليوم في إدارة الكتابة والحساب والتجارة والصناعة والزراعة والقضاء والحرب والصحة ونحو ذلك، بل إن المدنية وأسباب الرقي الحقيقي في العصر النبوي في تلك السنوات العشر, من حيث العلم والكتابة والتربية وعظيم الاتحاد وتنشيط الناشئة وما قدر عليه رجال ذلك العهد, وما أتوه من الأعمال وما بثوا من حسن الدعوة والعلوم ومتمكن الموعظة، لم تبلغها أمة من الأمم ولا دولة من الدول في مئات من السنين، بل جميع ما وجد من ذلك إلى هذا الحين عند سائر الأمم كلها على مباني تلك الأسس الإسلامية قام، فلولا تلك العقول الكبيرة وما بثوه من العلوم وقاموا به من الأعمال لما استطاعت المدنيات المحدثة أن تنهض، فالرسول صلى الله عليه وسلم جعل من أصحابه بحاراً في العلوم على اختلاف أنواعها من الشرعية والعقلية والحسابية والسياسية والعلوم الباطنة والظاهرة، واستوزرهم عليه الصلاة والسلام وولاهم الأعمال بأنواعها من الكتابة كالرسائل والإقطاعات وكتابة العهود والصلح والرسل، ووظف الترجمان وأمراء السرايا وكتاب الجيش والقضاة وصاحب المظالم والمحتسب وفارض النفقات وصاحب العسس في المدينة والسجان والعيون والجواسيس والمدارس والأطباء والجراحين والممرضات والصيارفة وصاحب بيت المال ومتولي خراج الأرض وقاسم الأرض وصانع المنجنيقات والرامي بها وصاحب الدبابات وحافر الخنادق والصواغين والحدادين وأنواع المتاجر والصناعات والحرف من النسج والخياطة وبائعي العطور والمسك وعمال النظافة وبائعي اللحوم الجاهزة والمواشي وغير ذلك مما تجد أن مدته عليه السلام مع قصرها لم تخل عن أعمال هذه الوظائف وإدارة هذه العملات وتجد أنها كانت مسندة للأكفاء من أصحابه وأعوانه عليه الصلاة السلام الذين تعلموا منه أصول كل شيء, أراد الله سبحانه أن يعلمه ويفصله ويسنه لهم وللأمة من بعدهم والناس أجمعين، إذ بالضرورة ندري أنه لا يوجد أحدا بدأ في شيء من الأزمان ولا مكان أصلا يأتي بعلم من العلوم لم يعلمه إياه أحد ولا يتكلم بلغة لم يعلمه إياها أحد ولا صناعة من الصناعات لم يوقفه عليها أحد.

ومن هنا كانت مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم المركز الأول للحضارة العربية الإسلامية فيه نمت واكتملت وصقلت، ثم خرجت مع الفاتحين لتقوم بدورها في كل مكان وصلت إليه، واستطاعت فئات كثيرة من المسلمين أن تصل برعاية الرسول صلى الله عليه وسلم بالحضارة الإسلامية في مهدها الأول إلى مستوى من التفوق في كثير من المجالات، وكان من البديهي أن تتفاعل الأمة عبر أجيالها

المتعاقبة، مع كليات القرآن الكريم وتفصيل السنة النبوية في مختلف شعب الحياة ومجالاتها وكان من أبرز وجوه التفاعل ذلك العطاء الضخم الذي تفرع في شتى مناحي العلوم وأثمر مناهج علمية عظيمة للبحث والمعرفة أسهمت في تطوير الحضارة العربية الإسلامية بالرغم مما شاب هذا التطور من شوائب دخيلة في بعض الفترات التاريخية إلا أنها استطاعت أن تعم بعلومها أرجاء العالم وعلى أسسها قامت المدينة الحديثة.

أسباب اختيار الموضوع:

كان سبب اختيار الموضوع هو عدم توفر دراسة حديثة تتناول الموضوع على التفصيل المذكور هنا, فبالرغم مما أولاه المؤرخون، والمحدثون والفقهاء من عناية كبيرة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسننه، إلا أن معظم المؤلفات الحديثة في تاريخ الحضارة العربية والنظم المدنية الإسلامية، لا يعطى مؤلفوها ذلك العهد – على أهميته – في حيز بحوثهم سوى صفحات معدودة، وربما تأتي في سياق التدرج التاريخي والتمهيد لدراسة تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، أو أحد مظاهرها _فقط_ دون الوقوف على كل ما أمكن الحصول عليه من مادة تاريخية عن مستوى الحضارة والتنظيم المدني في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

هذا الأمر أدى إلى النظر للسنة النبوية _عند عرض مناهج الحضارة_ وكأنها مجرد إشارات تنظيرية (مثالية) وغير تنظيمية، أي أنها لم تخضع للممارسة لكي تشكل نواة للتراكم الحضاري ومظاهره في الإسلام بل أصبحت وكأنها مادة غير متجانسة مع تركيب الفكر الحضاري، للحد الذي دعا بعض المستشرقين إلى عرض سيرة وسنن النبي صلى الله عليه وسلم لأغراض ليست علمية، وإنما للتشكيك والهجوم المتعصب أو تقليد التعصب لا أكثر، ومحاولة التشويش الفكري على فكرة ريادة العالم بالقيم الحضارية والمبادئ المدنية الإسلامية.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تأكيد دور السنة النبوية في توضيح، وتعميق فهم المسلمين للأصول التي قامت عليها حضارتهم، وعرض تاريخ تطبيقات الرسول صلى الله عليه وسلم الفعلية لقيام الدولة الإسلامية واستبيان تاريخ الدولة النبوية والنظم المتبعة في إمضاء أعمالها، ودور ذلك في رسم منهجها العام والخاص في مجمل علوم النظم المدنية.

كما تهدف إلى الكشف عن أهم مساهمات السنة النبوية في تفصيل مبادئ التمدن الإسلامي، ومحاولة الرد بالحجة والدليل على بعض المستشرقين الذين تصدوا للبحث في النظام الإسلامي بعامة وتطبيقاته في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص، وكتبوا بروح العداء أو بأسلوب الجدال والمغالطة والادعاءات الباطلة.

مفهوم الحضارة والمدنية:

إن من أهم مقتضيات الدراسة السليمة، هو استيضاح المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها، فهذه المفاهيم هي التي تحدد الغايات التي تتجه الدراسة إليها طلباً للفهم، لذا فطبيعة هذه الدراسة تستدعي مناقشة بعض المعاني الدالة على كل من مفهوم الحضارة ومفهوم المدنية، ومن هنا تقتضي الضرورة – قبل تعريف الحضارة – أن نذكر أن هذا اللفظ يستعمل لأداء معنيين مختلفين قلما يميز بينهما.

أما المعنى الأول، فهو الوصفي الذي يعبر عن المستوى الفكري والاجتماعي، والفني والروحي لمجتمع أو فرد معين(عاشور, 1986م, ص5) بمعنى مجموع القيم التي تتوافر في شعب أو شعوب عدة، بما تضم من علاقات اجتماعية ومعرفة نظرية وقواعد سلوكية إلى غير ذلك، فإذا ذكرنا – مثلاً – نظام الإقطاع في أوروبا الوسيطة أو دين الإغريق، أو الخلافة في الإسلام، كان كلاً منها بهذا المعنى مظهراً لتفاعل القيم الحضارية لمجتمع معين، تؤلف مظاهرها وحدة شاملة(زريق, 1969م, ص14)، بمعنى التقييم الذي به نتوجه إلى القيم التي تتضمنها الحضارات وتتميز بها، أو نقارن ونقابل بين حضارة وأخرى، أو نحكم على الدور الذي تمر به إحدى الحضارات(زريق, 1969م, 15).

بهذا المعنى نقول عند تقييم حضارة ما إنها في تقدم أو انحطاط أو ازدهار أو ذبول، بناءً على ما تحمله من صالح القيم الروحية، إذن فإن واجبنا الأول هو أن نعرف الحضارة، وأن ننفذ من خلال هذا التعريف إلى ماهيتها، ماذا نقصد بهذه الكلمة، وما هو جوهر ما نقصده، وهل المدنية ثمرة القيم الحضارية وذروة تفاعلها ونتاجها؟

من هذا المنطلق، فإن تعريف الحضارة إذا استنطقنا اللغة العربية وجدناها تعني في العربية الإقامة في الحضر، أي في المدن والقرى، بخلاف البداوة، وهي من الفعل (حضر) الذي هو نقيض المغيب والغيبة، وجاء في لسان العرب في مشتقات هذه المادة: حضر، يحضر، حضوراً، وحضارة، ويعدى فيقال: حضره ويقال: كنا بحضرة ما أي عنده .. وإنه لحسن الحضرة والحضرة إذا حضر بخير، وفلان حسن المحضر(ابن منظور, 2000م, ج148/4)، وهكذا .. الحضارة ضد البادية وهي المدن والقرى والريف والبادية ضدها(الرازي, 1976م, ص141)، وسميت بذلك، لأن أهلها تميزوا بالاستقرار.

فأصل المعنى إذن، هو الاستقرار الروحي والمكاني، وهو السبيل الذي تتوفر فيه مجالات التطور، ومن ثم يقابله تقدم في فنون اكتساب المعاش، وفي بناء المدن وفي تحصيل المعرفة، وفي الانتظام الداخلي والتعامل الخارجي، وهكذا يرتبط استخدام الكلمة في العربية، " بدلالة مكانية تحمل في بعض مجالاتها معنى من معاني الحركة المقصودة والخير" (الشرقاوي, 1985م, ص13)، وهذا التمييز بشكل عام بين الحضارة و المدنية عريق عندنا ، نجده واضحاً مردداً في ما وصل إلينا من أدب وتاريخ ونظم وعادات، وما إلي ذلك.

في العربية– أيضاً – كلمة قديمة أخرى تفيد معنى التمدن أو المدنية، جاء في لسان العرب قولهم مدن بالمكان أقام به، كما جـاء في قولهم الحدر والحجر، فالحدر الأرض المنحدرة لا يبنى عليها أي البادية، والحجر المدينة، ولذلك يوجد في الجزيرة العربية عدداً من المدن باسم الحجر(ياقوت الحموي, 1957م, ج2/ 256)، لكون المدن يسكنها السلطان، أو فيها تتركز إدارة الدولة(ابن خلدون, (د.ت), ص609_612).

وقد استعمل ابن خلدون صيغة (التمدن) بمعنى الحضارة أو التحضر فيقول، إن التمدن " غاية للبدوي يجري إليها "، لأن الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من حياة الجماعة المنظمة داخل مدينة، ثم ينسب هذا الاصطلاح إلى الفلاسفة اليونان الذين – بحسب وصفه – كانت المدنية عندهم مظهراً للاجتماع المنتظم المتحضر(ابن خلدون, (د.ت), ص69).

ثم يعتمد هو اصطلاح (العمران) ، للتعبير عن المدنية في التعريف بها باللغة العربية(ابن مسكويه, 1966م, ص29, 115)، كل هذا يعفينا من مهمة استقصاء المعاني التي تدل عليها هذه الكلمة في تراثنا العربي .

أما في الاصطلاح (الحديث) فالمدنية لها معنىً يحليها إلى وضوح النظام الاجتماعي الذي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي حين ينتهي الاضطراب والقلق (ديورانت, 1988م, ج3/1) وإذا انتهى الاضطراب والقلق أنتج مناخاً يمكن أن يتراكم فيه الجهد الإبداعي المبذول, وعلى هذا فهي نوع من أنواع الحياة البشرية المتقدمة التي عمادها بصفة أساسية معيشة المدن، وما تستوجبه من تنظيم يُفّعل النتائج والتدابير التي تتمثل في الكتابة، والتشريع، ونظم الحكم، وأساليب التجارة، وكل النظم المدنية.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلي أن الحضارة بوصفها السابق الذكرليس محدد للتمييز بينها وبين المدنية، لذا فإن تتبع (المدنية) بوصفها الاصطلاحي ضرورة تفيد موضوعية البحث في هذا المجال، لأن كلمة الحضارة، وكلمة المدنية استخدمهما كثيرٌ من الباحثين على أن كلاً منهما هي مرادفة للأخرى في المعنى والوصف.

إذن يصعب بهذا الدمج اللغوي الاصطلاحي التفريق أوالتمييز بين أن تكون أمة ما متحضرة، وأن توصف بأنها متمدنة بالمعني التقني؛ إذا لم ينظر إلى المعيار الحضاري المعنوي، باستقلالية عند استخدامه في التعبير عن هذه المرحلة الإنسانية، فالشعوب التي بها تنظيمات اجتماعية وتشريع خلقي رفيع(ديورانت, 1998م, ج4/1) وبعض الفنون لا نستطيع أن ننفي عنها أنها متحضرة، ولكنها يمكن أن تكون غير متمدنة بالمفهوم الاصطلاحي.

فالمدنية ارتبطت – في معناها – بقيام تجمعات سكنية وإنتاجية وترفيهية تسمى مدناً، بحيث تتحقق في هذا المفهوم على وجه الخصوص جميع التجليات المعتبرة مدنية في شتى مؤسسات

الدولة، من الأجهزة الإدارية، والقضائية، والعسكرية، والثقافية، إلى آخره، أو تتجسد في أعمال عينية، كالعمارات، والمنشآت الإنتاجية، والمصنوعات والمنتجات الفنية بأنواعها ...، وغيرها(غنيم, 1987م, ص151,152).

ومقارنة بمفهوم الحضارة في مختلف تجلياتها المادية والروحية، يمكن القول: إن المدنية تمثل المجموعة الفعالة من عناصر الحضارة، أي النشاط التقدمي الذي بفعله تتقدم الحضارة ولا تصاب بالجمود والركود، طال الزمن أم قصر(الموسوعة الفلسفية, 1986م, ج736/1, 737) , ولعل من أهم ما جاء في هذا الشأن، هو القول بأن المدنية تمثل يقظة العقل الاجتماعي الدائمة التحضر والاهتمام النقدي التطوري، بينما تمثل الحضارة حالة التوازن، لهذا التطور(أرحومة, 2000م, ص89, 90).

كل ذلك يحيل التفكير إلى أن المدنية هي نتاج مباشر للعقل البشري الفعال والمتحفز للابتكار والإبداع، ومن ثم يتميز مفهومها في هذا الخصوص بكونها بيئة اجتماعية ومكانية تستوعب إنتاج العقل الإبداعي والسلوكي، فتقدم بذلك مختلف أنماط وأشكال الحركة في العلم والتقنية، والأدب والفن، ويرتقي الإنسان في الاجتماع، والاقتصاد والقانون والقضاء والسياسية وما يصحب ذلك من تطور في المنشآت والمواصلات والاتصالات وغيرها.

إذن يمكن اعتبار المدينة حقيقة تاريخية في المكان والزمان، ومن هذه النقطة فأن تاريخها يمكن استقراؤه من خلال الرواسب التاريخية التي توضح أن المدينة: هي المكان الذي تتلاقى فيه كل عناصر الحياة الكثيرة، وتعد المدينة العاصمة، مركزً تتمثل فيه أعلى صور التراكم الزمني والمكاني، ومن ثم ينظر إليها باعتبارها بؤرة تتجمع فيها كل هذه التطورات، الماضية والحاضرة (ابن خلدون, (د.ت), ص615_621)، كما يمكن النظر إلى المدينة من خلال افتراض نظري يشمل عدة معايير:

1. المهنة، حيث يرتبط معظم السكان بالصناعة والتجارة.
2. البيئة، والتي يسيطر عليها الإنسان في محاولة التكيف معها.
3. حجم المجتمع والذي يميل إلى الكبر نسبياً.
4. تجانس السكان أو تمازجهم.
5. الحراك الاجتماعي حيث يبدوا في المدن أكثر وضوحاً(الخشاب, 1982م, ص112).

وإيجازاً لما سبق في التعريف بالحضارة والمدنية يمكن النظر إلى الحضارة على أنها القاعدة التي تتعلق بالتقاليد الاجتماعية الأصيلة من فنون وآداب وديانات وأخلاقيات، بينما تكون المدينة مما يتصل بنظام الدولة، من قطاعات متعددة, بمعنى أن الحضارة هي التراث التاريخي والتركيب المعنوي

الذي يتضمن القيم الروحية العليا التي تحرك مجتمعاً ما، بينما المدنية إنشاءات اجتماعية تظهر فيها خلاصة ما تطورت إليه هذه الطاقة البشرية في محاولة التحكم في طبيعة الأشياء.

وعلى هذا، فإذا كانت (الحضارة والمدنية) هما جماع إبداع الأمة في عالمي (الفكر) و(الأشياء) أي في (القيم) التي تهذب الإنسان وترتقي به(ديورانت, 1998م, ج5/1, 6)، وفي (التمدن) الذي يجسد ثمرات الفكر – في التطبيق – والتقنية – أشياء يستمتع بها الإنسان .. إذا كانت هذه هي، فأنها – بوصفها إبداع بشري – وثيقة الصلة بدين الإسلام(عمارة, 1991م, ص14, 15)، ومفهوم النبي صلى الله عليه وسلم لها جاء من خلال تلك التصورات السابقة الذكر اعتماداً على التشريع الإلهي والاجتهاد الفكري.

بل إن خروج النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة، كان إنجاز لإنقاذ الدعوة و الخلية الأول للإسلام، من حصار الجاهلية، وكان – أيضاً – إنجازاً لانتقال العقل وهجرته من القيد الجاهلي، إلى العقل المتحضر والمنتظم من حياة البادية إلى المدينة المنظمة، وهذا لأنها لم تكن هجرة حركية للأفراد والأشياء فقط، إنما كانت – أيضاً – تركٌ كامل لكل السبل القديمة في المعاش والتفكير وبداية أخذ الحداثة في سبل التمدن بإتباع سنن النبي صلى الله عليه وسلم في الدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع، وغير ذلك, وتشكل من الكل منظومة حياتيه متعددة الجوانب أصبحت فيما بعد تعرف بالحضارة العربية الإسلامية أو محتوى تاريخ التمدن الإسلامي " أي تلك المدنية المتجانسة رغم تنوعها"(يونج, 1962م, ص232).

وفي ضوء هذه الحقيقة التاريخية، نفهم اصطفاء الله سبحانه وتعالى(مكة) أم القرى مهبطاً للوحي بالدين الجديد، ونفهم مغزى كون (يثرب) _المدينة _ هي دار الهجرة وعاصمة الدولة، ويتضح أن هذه العلاقة بين الدين وبين الحاضرة، ليست خاصية إسلامية، وإنما هي سنة من سنن الله في كل الأمم .

فكما أصطفى الله حاضرة مكة ، لتبدأ منها الدعوة قائلاً لرسوله صلى الله عليه وسلم(وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)(الأنعام/92) أنبئنا في القرآن الكريم أن هذا الاصطفاء إنما كان اطراداً لسنة إلهية(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا](القصص/59) فأم القرى، أو المدن العواصم، كانت دائماً هي موطن الرسل والرسالات لأنها" أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها لكون أهلها أفطن وأنبل"(ابو السعود, (د.ت), ج7, ص20)، وذلك للعلاقة العضوية بين الدين والحضارة والمدنية، على امتداد التاريخ ، بل إن أول الدول نشأت في المدن، وهذا هو الظاهر في تاريخ الشعوب القديمة كالمصرية والبابلية والفينيقية والإغريقية.

هذه هي الفطرة التي انتظم عليها أعمار الكون في سياق متوازن، وهو جوهر الحضارة وسر حياتها(الوشي, 1999م, ص378)، فالحضارة بشكل عام" لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية والحضارة لا

تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعاً ومنهاجاً" (بن نبي, 1979م, ص5) والمدنية لا تقوم إلا في ظل الاستقرار الروحي والمادي الذي ينتج أفضل صورها، وهذا الاستقرار له عوامله المؤثرة فيه سلباً أوإيجاباً.

وبما أنه يوجد تمييز بين مصطلح الحضارة وبين مصطلح المدنية، فالبحث سيجرى وفق هذا التمييز، حتى يمكن التمييز بين (الحضارة)، وهي القيمة الروحية، وبين المدنية وهي الفعل الحركي للتنظيم على أساس محتوى القيمة لأية حضارة.

العوامـــل المؤثرة في القيم الحضارية ونشوء المدنية:

بناءً على التفريق الاصطلاحي بين مفهوم الحضارة والمدنية يمكن مناقشة هذه العوامل بالبحث من اتجاهين:

الأول: إذا كانت الحضارة هي الإرث الفكري للمجتمع، وتتعلق بتقاليده الأصلية في الديانة والأخلاق والفنون والآداب، وما إلى ذلك، فإنها بالنتيجة لابد لها من وجود ناقل لهذا الإرث الفكري، ولما كان الإنسان منذ وجوده على الأرض حاضراً ولم يختفي بحكم عامل من العوامل، فإن إمكانية نقل وتوارث هذا النمط الذهني حاصلة بقطع النظر عن قيمة هذه الأفكار أو القيم الحضارية.

وإذن، فربما لا يمكن إخضاع وجود الإنسان لعامل مادي بعينه يوفره على الأرض – هكذا – بوصفه متحضراً ومتمدناً، ومن ثم من الصعب أن نخضع الحضارة – بوصفها المعنوي – للعوامل الطبيعية.

فالانقلاب في طبقات الأرض، أو التغيير المناخي الشديد، أو استنزاف الموارد الطبيعية أو التغير في طرق التجارة تغيراً يبعد أمة عن الطرق الرئيسية لتجارة العالم، كل ذلك يمكن أن يؤثر في المدنية بوصفها قطاعات اجتماعية وإنشاءات عينية ، يمكن دمارها أو اضمحلالها بإحدى الوسائل السابقة، وقد حدث هذا مرات ومرات منذ خلق الإنسان فكانت ومازالت تختفي مدناً وقرىً بأكملها(ديورانت, 1972م, ص107)، حتى أنه مر على تاريخ الأرض دمار شامل ، ولم يبقي إلا هذا الإنسان وبعض الكائنات الأخرى كما جاء في القرآن الكريم[1], وعلى هذا يمكن استبعاد العوامل الطبيعية، على أنها سبباً مباشراً في تفسير التاريخ أو في استخلاص قوانين بحكمها تصعد الأمم أو تنهار.

---

(1) سورة هود، الآية: 40، المؤمنون: 27، العنكبوت: 15، يونس: 73, الحاقة: 12، ينظر= الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج12، القاهرة، ط2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1954، ص 34، 35؛ القرطبي، الجامع لأحكام القران، (تح: محمد بيومي)، ج 10، المنصورة، مكتبة الإيمان، (د. ت)، ص359، 364؛ الثعلبي،عرائس المجالس، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط1، القاهرة، 1956م، ص46

والأمر الثاني: هو أن المفكرين والباحثين يتجهون مباشرة في دراسة هذه القضية إلى تتبع تاريخ حركة البشر لا الأشياء، وهو نوع من الدراسات الاجتماعية والتاريخية أُصطلح على تسميتها بفلسفة التاريخ، وهي دراسة تسعى إلى محاولة لتفسير التاريخ الإنساني، واكتشاف العوامل التي تؤثر في سير حركة التاريخ وتطور الأمم أو تأخرها، أو بقاؤها على اتزانها(الشرقاوي, 1985م, 146_148)، فالتاريخ الإنساني لا يسير اعتباطاً أو بدون هدف وإنما يكون ذلك وفق قواعد وقوانين محددة تهدف إلي الوصول إلى غاية معينة(عثمان, 1965, ص16, 17).

هذه الدراسات التي قامت حول تفسير التاريخ – هي في حد ذاتها – دراسات تخمينية لا تستند إلى أساس علمي صحيح، لأنها لم تصل أبداً إلى قوانين عامة ودقيقة تخضع لها كل الأمم في تقدمها أو تأخرها، أو بقاؤها إجمالاً، وإنما كل ما وصلت إليه لا يزيد عن بعض أحكام عامة، جاءت نتيجة دراسات سطحية لا يمكنها تفسير حقيقة تطور الجماعات الإنسانية وبشكل واضح، أي أنها ليست علمية وليست دقيقة أو ليست صحيحة في معظم النتائج, وللتحقيق في ذلك يمكن القول:

في الاستخدام المعاصر تطلق كلمة (علم) على مجموعة متنوعة من الأنظمة أو المناشط العقلية لها مميزات خاصة تجمع بينها، ثم بينت الملاحظة أن بعضاً من هذه الأنظمة له ملامح خاصة مشتركة تكفي لضمها كعلم واحد.

وفي استخدام هذا الوصف (العلم) لا يوجد اتفاق بين الباحثين على اعتبار بعض المعارف كالتاريخ والاجتماعيات في دائرة العلوم، وهذا أمر نسعى إلى نفيه ومحاولة أثبات عكسه, فابتداءً: إذا كان من الممكن تقسيم العلوم إلى مضبوطة، ووصفية، فإن الفارق الرئيس بينهما هو دقة القياس، فالقسم الأول يعتمد أساساً على قياسه بالأرقام، وكلما كان اعتمادنا على الأرقام أكثر كانت درجة الدقة في الدراسة أعلى وهكذا..

أما القسم الثاني – وهي العلوم الوصفية – فأهم ما تقوم به هو أن تكوّن لنفسها منهجاً للوصف أو التصنيف يقود إلى مزيد من الدقة في وصف الحالة، ولكن دون أرقام ونسب محددة.

وإذا كانت العلوم التطبيقية قابلة للملاحظة والتكرار، فإن مناهج البحث عند علماء المسلمين كانت مضبوطة، وبالدقة التي كانت تتيحها لهم إمكانياتهم العلمية المتطورة والتي أثرت في مناهج البحث في النهضة الأوروبية الحديثة(لوبون, 1956م, ص173, 174)، إذ إن شعار العلماء المسلمين في بحوثهم كان مرفوعاً على قمة الأسلوب التجريبي والدستور العلمي(صبري, 1950م, ج1/ 224), ولو أردنا أن نستقصي نتائج تلك الحركة العلمية العظمى لخرجنا من حدود هذا البحث، فالمسلمون قد ارتقوا بالعلوم ترقية كبيرة جداً، و أوجدوا علوماً أخرى لم تكن موجودة قبلهم.

هذه الناحية ليست محل جدل كبير بين العلماء، فالإضافات التي قدمها العلماء المسلمون للتراث الإنساني تزداد العناية بها يوماً بعد يوم، ويزداد تبعاً لذلك بروز الجهد الإسلامي في التراث العلمي، إلا

أن الجانب الذي لم يتم عليه اتفاق بين الباحثين حتى الآن هو القوانين البشرية أو قوانين المجتمع و إشكالية التحضر والتمدن والتأخر أو الفناء.

وترتب على هذا أن اختلفوا في وضع التاريخ والاجتماع بين (العلوم) المضبوطة أو – على الأقل – الوصفية كما مر آنفاً .

ولعل مناقشة هذه المسألة تكون أوضح إذا طرح الموضوع من خلال هذين السؤالين:

أ – هل هناك قوانين مضبوطة لتطور المجتمع حتى يوصف بالمجتمع المتمدن؟

ب – ما هي هذه القوانين وكيف نصل إليها؟

إذا بحثنا في هذا الصدد نجد أنه مع الاتجاه التجريبي في العلوم أخذت الجهود تبذل في معرفة العوامل المؤثرة في تطور المجتمع، فلم تعد دراسة التاريخ والمجتمعات البشرية مقتصرة على مجرد سرد الحوادث، التاريخ لم يعد مجرد حقائق ليس فيها حبكة ولا هدف. إذن لابد للتاريخ أن يتطور بالبحث من مرحلة جمع المعلومات إلى ربطها وتحليلها ثم تفسيرها وتوظيفها .. حتى يمكنه التلاقح والتطور مع العلوم الأخرى.

وعندما بدأت عمليات التلاقح، تعددت مدارس فلاسفة التاريخ، وأعطت لحركة وسير التاريخ أكثر من تفسير فهناك التفسير الديني والجغرافي والعنصري والاقتصادي والنفساني والتاريخ المركب(ديورانت, 1972م, ص480_486)، ولكلٍ من هذه التفسيرات دعاتها والمؤلفات التي وضعت فيها .. وفي نطاق التفسير الواحد تتعدد أيضاً اتجاهات الأفكار والعلل.

فالذين يفسرون التاريخ تفسيراً اقتصادياً يعللون هذا التداول وصعود وهبوط الأمم بقوانين المادة، فإخصاب الأرض لسبب طبيعي، أو تحول المطر أو زيادته أو تغير المناخ بعامة، أو اكتشاف طرق جديدة يتبعها تغير في سبل النقل التجاري ، أو اكتشاف أرض جديدة، أو ابتكار آلة واستخراج معدن، أو غير ذلك مما يغني ويزيد في القوى المادية هو العنصر الذي يدفع بأمة ما إلى حياة العمران[2] (هيجل, (د.ت), ج1/ 43, 44)، كما أن فقدان الرجحان الاقتصادي يتبعه التدهور والانحلال، ولا شيء آخر غير هذا سبباً – بحسب تفسيرهم – لقيام الأمم المتمدنة(لطفي, 1977م, 249_253؛ هيجل, (د.ت), ج1/ 215_217)، بل إن القيم الروحية وكل التجليات المعتبرة اجتماعياً هي ثمرة مباشرة للواقع المادي(برنتن, 1946, ص526, 543).

---

(2) ويعد هذا التفسير من أقدم التفسيرات التي عرضت على أساس العامل المادي الاقتصادي ، كان قد بسطه (لوكريتوس) – و هو فليسوف يوناني هيليني – في ملحمة له يتحدث فيها عن دراسة التطور التاريخي للإنسان ، ويعظم فيها عوامل المادة ، ويبعد شرور الآلهة !! 55 ق .م ، ينظر سارتون ، جورج ، تاريخ العلم ، (ت : إبراهيم مدكور ، وآخرون) ،ج5 ، القاهرة ، دار المعارف بمصر، 1970م ، ص 59 – 97 .

ويعول آخرون على أن سبب ظهور أمة ما هو في ذات جنسها، بمعنى أن نقاء العرق أو مزجه بعناصر أخرى يولد عنصراً بشرياً آخر أقوى يندفع بما هو كامن فيها من الطاقات والقوى الموروثة، فينتج للعالم ويضيف للتراث البشري علماً ومدنية ..!، قد بطلت هذه الدعوة وأصبح لا مجال لها في ميدان العلم الصحيح(مدكور, 1968م, ج1/ 17, 18).

ويقول أخر– ناقداً التفسيرات السابقة – إن الحضارة ليست وليدة عوامل خارجية محتمة فقط بوصفها قدرة قاهرة أو عوامل طبيعية أو جغرافية ثابتة، وليست نتيجة ميزات عرقية غالبة على فعل الإنسان وجهده الاكتسابي كما مر سابقا.

صحيح أن للعوامل الطبيعية والارثية والبيئية والاقتصادية أثرها الذي لا يغفل؛ ولكن هناك عوامل أخرى تساهم في بناء المدنيات، وهي العوامل النفسية الإرادية الفعلية، أي عزم الإنسان على الإنجاز والاكتساب(توبيني, 1961م, ج1/ 104, 105, ج2/ 142, 143).

وهكذا إذاً تعددت الآراء واختلفت حول هذا الموضوع، لاختلاف تصور العقول وتفاوتها في الفهم والتقدير عند النظر لمسألة من هذا النوع والحجم.

وبأية حال كان من الطبيعي أن يحاول دعاة كل تفسير من هذه التفسيرات أو غيرها إثبات صحة وجهة نظرهم وعرض أحداث التاريخ بما يؤكد هذه الوجهة وبحسب قواعدهم التي يتبعونها في ذلك إلا أن تلك القواعد– في الواقع – هي عبارة عن بعض المعايير التي لا تكفي لتفسير الواقع، ولا تحل القضية لأسباب كثيرة منها:

إن هناك – علي سبيل المثال – من الحضارات التي قامت أو اندثرت من غير أن يكون للعامل الاقتصادي سبباً في ذلك ، فقدماء المصريين والبابليين هم الذين زرعوا الصحراء، ولم تكن في الصحراء ما يمكن أن يسمى بعامل اقتصادي مع ذلك هي حضارة الفراعنة والبابليين بكل ما فيها من مظاهر، ولم تبعثهم العوامل المادية، ولم تكن سبباً في دمارهم، والتاريخ خير شاهد على ذلك.

وكثيراً ما كان العوز الاقتصادي سبباً لظهور أمم وقفزها فوق هذا الحاجز بكفاحهم ليخرجوا للعالم شكلاً من أشكال المدنية الضخمة، ومثل اليونان والفينيقيين والعرب واضح.

فخروج العرب – على سبيل المثال – من شبه الجزيرة العربية وانتشارهم و وصلهم بين الحضارات القديمة والحديثة ، و ابتكارهم في العلوم و سبل التمدن بشكل عام، لم يكن نتيجةً لتوفر الاستقرار الاقتصادي، إنما كان نتيجةً لتوفر الاستقرار الروحي و التفوق الأخلاقي، و قناعتهم بصلاح المنهج الجديد.

كما أن سقوط أولئك لم يكن بسبب جدب أصاب أرضهم، ولا لأن مناخهم تغير، ولا لأن تغيراً قد حدث باكتشاف طرق تجارية، أو اكتشاف أراضٍ أخرى في عالم جديد، كما يري بعض دعاة العامل الجغرافي والاقتصادي(3).

وهكذا لو تتبعنا كل هذه التفسيرات الجزئية لكانت عرضة للنقد لاعتبارات كثيرة تعرضت فيها للنقد العلمي في مضمونها العام، فضلاً عن المفصل(صبحي, (د.ت), ص132_150؛ البهي, 1973م, ص362_364)، لكن أسلوب النقد لم يتجه – كثيراً – إلى أن عقلاً بشرياً أو مجموعة من العقول – فكرياً – هي عاجزة عن الإلمام بكل تفاصيل هذه القوانين، ومن ثم يمكن أن يكون الفكر والتصور البشري منفرداً – أساساً – غير كافٍ لحل هذه المعادلة أو تصحيحها ومن هنا يجب أن يعترف الفكر البشري بفقد صلاحيته لتفسير هذا الأمر، لأنه إذا افترضنا كفايته لتفسير ذلك ، فهل سيعطي كل العوامل والقوانين التي تكفل استنتاج معايير معينة تضبط هذا الواقع وتفسره ؟ وبخاصة إذا علمنا أن المفكر أو الفيلسوف الذي يمثل (العقل) هو لا يعاصر كل الأمم ويراقبها منذ بداية أول صفحات التاريخ وصولاً إلى حاضره، أو إلى المستقبل، وإنما يراقب الحوادث التي يحياها، ويمكن إن يحصل على شيء من الماضي مروياً أو موصوفاً، وفي الغالب – كما يشير العلماء – يكون ذلك الماضي غير دقيق في تدوينه أي غير محقق تاريخياً(هارون, (د.ت), 35_39)، فضلاً عن انعدام القطع بما سيؤول إليه المستقبل، ثم كيف يمكن الأخذ بهذا التفسير أو ذاك، هو تفسير تاريخي و علمي و دقيق، مع وجود الجدل القائم حول تصنيف التاريخ و معارفه إلى دائرة العلم نتيجة لعدم تطابق النتائج في محصلة المعادلة التاريخية لقوانين تطور الأمم.

ومن هنا فإذا توفر لنا مصدرٌ آخر يفسر العلل ويضع القوانين والقواعد التي تتحكم في عملية تداول القيم الحضارية بين الأمم ، ويفسر لنا العوامل الرئيسية لبقاء المدنية وازدهارها في تاريخ أمةُ ما و بقائها على توازنها، فضلاً عن أن ذلك المصدر يوضح السبل في إمكانية زيادة نمائها، أو يفسر عوامل فنائها إذا قرر رواد هذه المدنيات كسر هذه القواعد.

إن أمكن توفره وبهذه المواصفات العلمية الدقيقة من حيث التثبت من العلل بل و البرهنة عليها بالعلم التجريبي المشاهد الذي يمكن أن تعاصره كل الأمم وتتحقق منه فلابد – والحال هذه – أن ينهى الخلاف القائم على التصور العقلي منفرداً، بل قد يضع التاريخ في مصاف العلوم التطبيقية القابلة للتجربة مع تكرارها على الأقل فيما يخص هذه القوانين والسنن.

(3) يرى هيجل أن اكتشاف القارة الجديدة (أمريكا) يشكل عاملاً مهماً في ظهور الحضارة الحديثة ، وهو يحيل ذلك إلى العامل الاقتصادي الذي يمكن أن توفره في تحقيق عوامل التحضر، ينظر = هيجل ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 18- 191

ولما كانت الكتب السماوية هي مصدر المعلومات الكونية بشكل عام، وتاريخ البشرية على وجه الخصوص، فإن الذي نزلها سبحانه وتعالى, وهو المحيط بالعقل وما فوق أدارك العقل سن في هذه الكتب النصوص القانونية لبقاء الجنس البشري بحضاراته ومدنياته وكل ما له، وهي قواعد وقوانين تختلف من حيث المضمون والترتيب والأهمية عما جاء في تصور بعض الفلاسفة أو المفكرين، لأنهم " زعموا أن شرائع الأنبياء عليهم السلام التي هي أسباب النجاة، والطريق إلى دائم الحياة، على غير العقل موضوعها .... فلو أنهم أمعنوا النظر، وجردوا من شوب العصبية والهوى و الفكر، لعلموا أن أحدهم لوقيل له في شيء من خاصة أعماله، وما يصدر عنه من أقوال وأفعال: إن فعلك هذا على غير أساس العقل موضوعه ... ، لاستشاط من ذلك غضباً، ولقام به مكذباً .... فكيف يرضون للأنبياء عليهم السلام الذين هم سادات دنيهم، والوسائط بينهم وبين ربهم، ما لو قابلهم بمثله مقابل كرهوه ؟ أم كيف لا يعتبرون أن الخطاب في كتاب الله تعالى كله مع أولى الألباب....(الشيرازي, 1975م, ص52).

وقول آخر معلوم إن الفلاسفة يدَّعُون العلوم العقلية والأمور الحقيقية ....، وقولهم إنهم غنوا عن الأنبياء في معرفة معالم نجاتهم، وأن الحاجة إليهم لسياسة أمور الدنيا فقط [في حين أن] اعتقاد المحققين أن العلوم كلها التي منها العقليات التي يدعونها [الفلاسفة] هي في علوم الأنبياء اجتمعت، ومنها تشعبت وتفرعت وتصديقهم قول الله سبحانه (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ](يوسف/3)وقوله جل جلاله(وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ](الأنعام/59), وعلى أن الكتب السماوية، التوراة، والإنجيل، والقرآن، فيها من هذه القواعدإلا أن القرآن الكريم أوثقها وأصحها وأعمها، وأكثرها يقينية، لامتناعه عن التحريف والتبديل.

إذ إن النظر إلى القرآن الكريم في مجال تفسير التاريخ وقيام الأمم وأفولها يكفي للوقوف على أهم هذه القوانين التي بموجبها ترتقي الأمم وتنهار، وأن تدهور الأمم والمدنيات إنما يأتي من جوانب أخرى غير التي ركن إليها العقل البشري ألا وهي جوانب الفساد الأخلاقي، وقد حدد القرآن الكريم هذا الأمر، ووضع نماذج التجربة كاملة أمام العقل في حضارات عاد وثمود وقوم تبع وإمبراطورية فرعون، وكشف عن صدق هذا القانون(رضاء, 1934م, ج2/ 294, ج8/ 402_408, ج12/ 240_248)، بل وعن صدق تفسير وشرح النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوبه الحضاري و المتمدن لتفاصيل هذا القانون(رضا, 1934, ج2/ 29_31)، لأنه صلى الله عليه وسلم أنما بعث لتقديم الحلول التي من شأنها معالجة المجتمع الإنساني.

وقد يكون من جمع وترتيب الآيات التي وردت لتفسير قيام الحضارات ثم المدنيات أو أسباب أفولها ما يغني عن كل تلك التصورات المجزوءة، ويضعنا على طريق سير حركة التاريخ، وعن العامل

الحقيقي لإبقاء التوازن الحضاري مع التقدم المدني وبشكل واقعي، لأنه من المؤكد أنه يعلم ما نزل عليه ويعيه بدقة.

وها هي – بعد جمعها وترتيبها – تعطي بياناً واضحاً ومفصلاً عن غوامض المسألة بأسلوب الحوار العقلي في تأكيد هذا الأمر، الذي نسعى إلى تأكيده، فلقد قال الله سبحانه وتعالى(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً](الأحزاب/62)(اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)(الأعراف/3–5)(فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ](الأعراف/7)(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)(محمد/13)(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد)(ق/36،37)(وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)(العنكبوت/38)(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ] (**القصص /58**) (وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ) (**النحل** /112)(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] (الاحقاف/27).

تحت ضوء هذه الآيات يصبح الأمر أكثر وضوحاً، إذ لا علاقة للأشياء المادية بالأمر، لأنها لم تذكر في حد ذاتها بوصفها سبباً لفناء حضارة ما أو بعثها إنما الذي ذكر في المسئولية عن هذا، هي الأمم وسلوكها العام أثناء حركة التاريخ, كما أنه لم يكن من شأن الله سبحانه وتعالى و لا من سنته في عباده أن يهلك المدن بظلم منه وأهلها مصلحون في أعمالهم وأحكامهم، وهذا هو الأساس أو القانون الملازم لكل التطورات أو الانتكاسات الحضارية، ودمار المكاسب المادية في حياة الأمم.

إذ إن، السلوك الطبيعي في الحركة هو الدافع للإنجاز، ولكن لابد من أن ترافقه أثناء الحركة قيم أخلاقية بقدر كافي؛ لأن المدنية لا يمكن دوامها دون هذه القيم بل تتعذر حماية المكاسب المادية، دون أخلاق تعلم النظام وقواعد السلوك، وتدفع إلى الإتقان بحكمها ودافعها الداخلي(ابن خلدون, (د.ت), ص62, 63) لذا قال الباحثون في أحوال تاريخ المدنيات أنها " بطبيعة الحال كانت تستحيل بغير أخلاق"(اشفيستر, (د.ت), ص38_54).

كما أن الدين هو أقوى محفز للأخلاق الاجتماعية، " بل من علامات المراحل العليا في كل مدينة أن يحدث التجاذب بين الدين والمجتمع" (ديورانت, 1998م, ج1/ 120)، وسبب هذا التجاذب وتفسيره " إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا

حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء " لاتفاقهم على الغاية والأسلوب والوسائل المطلوبة عندهم(ابن خلدون, (د.ت), ص278).

إذن يمكن القول :– من خلال الآيات القرآنية والأقيسة العقلية والتجارب التاريخية – أن غياب العامل الأخلاقي ، هو دائماً ملازماً لجميع ظروف تحلل القيم الحضارية ودمار المدنيات.

وأن قانون بقاء الأمم وتقدمها، يتناسب تناسب طردي مع قوة الأخلاق وسريانها في نسيجها الاجتماعي ، أي أن أسباب أفولها مرتبط ارتباط وثيق بقضية الإفساد والترف، فأين ما وجدا، كانت النهاية المعروفة.

لذا لابد أن ينظر إلى هذا العامل على أنه بعيد كل البعد عن أن يكون عنصراً ثانوياً ، والتسليم بعموم الحكمة الإلهية في تداول الأمم ، ونشوء الحضارات(ابن مسكويه, 1966, ص86, 87, 167_170) للقول باستحالة استمرار المدنية بدون هذه القيم الأخلاقية ، لأنها ببساطة تسير عليها المجتمعات إلى جانب القوانين الطبيعية وتصبح العلة الأولى والمهمة هي ارتقاء الجانب الأخلاقي في نفوس صناع أي حضارة على الأرض(رضا, 1934م, ج1/ 248).

الخاتمة:

لقد اتضح من خلال البحث و الدراسة الدور الرئيس الذي مثلته السنة النبوية في مجمل تكوين منظومة القيم الحضارية ومبادئ النظم المدنية الإسلامية كما اتضح – أيضاً – أن شخصيته عليه الصلاة والسلام، بطبيعتها، لها علاقة أصولية بمفهوم الحضارة والتمدن.

كما تبين أن السنة النبوية هي التي شكلت الإطار العام لخصائص الحضارة العربية الإسلامية، فقد أخذت بكل الأصول والأفكار التي تضم كل من الحوافز الروحية والمادية، وبأسلوب منضبط وغير مسبوق، إي أنه من أهم خصائصها التمازج التام بين أمور الدين والدولة، وهذا ما أثر في الانتقال من حيز الفكر إلى حياة المجتمع المنظم داخل دولة.

لقد أقام الرسول صلى الله عليه وسلمالدولة الإسلامية بعد هجرته إلى المدينة من أجل حكم الناس وفق المبادئ والقواعد التي جاء بها، واعتمد في ذلك على الوازع الديني في نفوس المسلمين، كما استخدم عدداً من العقوبات من أجل ضمان تنفيذ تعليماته وضرورة الاستفتاء والشورى لأنه كان نصا قرآنيا اتبعه النبي صلى الله عليه وسلم ورافق معظم القرارات الهامة والمصيرية فكان يستشير الخاصة والعامة في بعض الأمور المتعلقة بالمصالح العامة بالرغم من عدم حاجته لاستشارة أحد من الناس، إلا أنه أرادها أن تكون سنة لولاة الأمر من بعده.

المصادر والمراجع :

1- أرحومة، على محمد، شواهد النظر في الإسلام، ط1، جمعية الدعوة الإسلامية، 2000 م.
2- أشفيستر: ألبرت، فلسفة الحضارة، (ت: عبدالرحمن بدوي)، القاهرة، المؤسسة العربية للتأليف.
3- برنتن، كرين، قصة الفكر الغربي، (ت: محمد محمود) القاهرة، مكتبة الأنجلو، 1946م.
4- البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط6, بيروت، دار الفكر، 1973م.
5- تونبي، ارنولد، مختصر دراسة التاريخ، (ت: فؤاد محمد شبل)، القاهرة، الإدارة الثقافية، 1961م، ج1/ ج2.
6- الثعلبي، أحمد بن محمد بن ابراهيم, عرائس المجالس، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط1، القاهرة، 1956م.
7- الخشاب، مصطفى، الاجتماع الحضري، ط2, القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1982م.
8- ابن خلدون، عبدالرحمن، المقدمة، مكتبة الشرفية، (د.ت).
9- ديورانت، ول، قصة الحضارة، (تزكي نجيب محمود)، بيروت، دارالجيل، 1998م, ج1.
10- ديورانت، ول، قصة الفلسفة، (ت: فتح الله محمد المشعشع)، ط2, بيروت، مكتبة المعارف، 1972م.
11- الرازي، محمد بن ابي بكر، مختار الصحاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م.
12- رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن العظيم الشهير(بتفسير المنار)، بيروت، ط2، دار المعرفة الجامعية، 1934م، ج2/ ج8/ ج12.
13- زريق، قسطنطين، في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، ط1, بيروت، 1969م.
14- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، القاهرة، دار المصاحف، (د.ت), ج7.
15- سارتون، جورج، تاريخ العلم، (ت: إبراهيم مدكور، وآخرون)، القاهرة، دار المعارف بمصر، 1970م, ج5.
16- الشرقاوي، عفت، في فلسفة الحضارة العربية الاسلامية، دار النهضة، ط4, بيروت، 1985م.

17- الشيرازي، أبوالنصر بن موسى، المجالس المؤيدة (تح: محمد عبدالقادر عبدالناصر)، القاهرة، دار الثقافة للطباعة، 1975.
18- صبحي, أحمد محمود ، في فلسفة التاريخ ، الجماهيرية ، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، (د. ت).
19- صبري، مصطفى، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1950م, ج1.
20- الطبري، محمد بن جرير, جامع البيان في تأويل آي القرآن، ط2, القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1954, ج12.
21- عاشور، سعيد عبدالفتاح وآخرون، تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ط2, الكويت، منشورات دار السلاسل، 1986م.
22- عثمان، حسن، منهج البحث التاريخي، ط2, القاهرة، دار المعارف، 1965م.
23- عمارة، محمد، الإسلام والفنون الجميلة، ط1,القاهرة، دار الشروق، 1991م.
24- غنيم، محمد أحمد، المدينة، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1987م.
25- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري, الجامع لأحكام القرآن، (تح: محمد بيومي)، المنصورة، مكتبة الإيمان، (د. ت), ج10.
26- لطفي، عبدالحميد، علم الاجتماع، القاهرة، ط7، دار المعارف، 1977م.
27- لوبون، غوستاف، حضارة العرب، (ت: عادل زعيت)، ط3, القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1956م.
28- مدكور، إبراهيم، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقِه، ط2, القاهرة، دار المعارف بمصر، 1968, ج1.
29- ابن مسكويه، أبي علي أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق، (تح، قسطنطين زريق)، بيروت، منشورات الجامعة الأمريكية، 1966م.
30- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2000م, ج4.
31- الموسوعة الفلسفية العربية، ط1، معهد الإنماءالعربي، 1986م, ج1.
32- بن نبي، مالك، شروط النهضة، (ت: عبدالصبور شاهين)، بيروت، دارالفكر الإسلامي، 1979م.
33- هارون، عبدالسلام، تحقيق النصوص ونشرها، القاهرة، مؤسسة الحلبي للنشرو التوزيع، (د. ت).

34- هيجل، جورج ولهم، محاضرات في فلسفة التاريخ، (ت: إمام عبدالفتاح إمام)، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، (د . ت) ، ج1.
35- الوشي، عطية فتح، الحضارة وإشكالية المصطلح، مجلة الدعوة الإسلامية، العدد السادس عشر(طرابلس), 1999م.
36- ياقوت الحموي، شهاب الدين ابي عبدالله البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1957م، ج2.
37- يونج، كوبلر، أثر الإسلام الثقافي في المسيحية (ت: محمد خلف الله)، ط2, القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، 1962.

Sources and references:

1- Arhumah, Ali Muhammad, Witnesses to Consider Islam, 1st Edition, The Islamic Call Society, 2000 AD.
2- Ashvestre: Albert, The Philosophy of Civilization, (T: Abdel Rahman Badawi), Cairo, the Arab Foundation for Authorship.
3- Brenton, Crane, The Story of Western Thought, (T: Muhammad Mahmoud) Cairo, The Anglo Library, 1946 AD.
4- Al-Bahi, Muhammad, Modern Islamic Thought and its Relation to Western Colonialism, 6th Edition, Beirut, Dar Al-Fikr, 1973 AD.
5- Tunby, Arnold, A Brief Study of History, (T: Fouad Mohamed Shebel), Cairo, Cultural Administration, 1961 AD, Part 1 / Part 2.
6- Al-Thallabi, Ahmad Bin Muhammad Bin Ibrahim, Brides Al Majlis, Mustafa Al-Babi Al-Halabi Press, 1st floor, Cairo, 1956 AD.
7- Al-Khashab, Mustafa, The Urban Meeting, 2nd floor, Cairo, The Anglo-Egyptian Library, 1982 AD.
8- Ibn Khaldoun, Abdul Rahman, Introduction, Al Sharafia Library, (d.
9- Durant, Well, The Story of Civilization, (Naguib Mahmoud Recommends), Beirut, Dar Al-Jeel, 1998 AD, Part 1.

10- Durant, Well, The Story of Philosophy, (T: Fathallah Muhammad Al-Masha'a), 2nd Edition, Beirut, Knowledge Library, 1972.

11- Al-Razi, Muhammad Ibn Abi Bakr, Mukhtar As-Sahha, Egyptian General Book Authority, Cairo, 1976 AD.

12- Reda, Muhammad Rashid, Tafsir of the Great Qur'an (Tafsir al-Manar), Beirut, Edition 2, University Knowledge House, 1934 AD, Part 2 / C8 / C12.

13- Zureik, Constantine, in the Battle of Civilization, Dar Al-Alam Al-Malayn, 1st Edition, Beirut, 1969 AD.

14- Abi Al-Saud, Muhammad bin Muhammad Al-Emadi, Guiding a sound mind to the merits of the Noble Qur'an, Cairo, The Qur'an House, (d.

15- Sarton, George, The History of Science, (T: Ibrahim Madkour, and others), Cairo, Dar Al Ma'arif, Egypt, 1970 AD, Part 5.

16- Al-Sharqawi, Effat, On the Philosophy of the Arab Islamic Civilization, Dar Al-Nahda, 4th Edition, Beirut, 1985 AD.

17- Al-Shirazi, Abu Al-Nasr Bin Musa, The Supporting Councils (Under: Muhammad Abdel Qader Abdel Nasser), Cairo, Dar Al-Thaqafa for Printing, 1975.

18- Subhi, Ahmed Mahmoud, On Philosophy of History, Jamahiriya, Libyan University Publications, Faculty of Arts, (Dr. T).

19- Sabri, Mustafa, The Attitude of the Mind, Science and the World towards the Lord of the Worlds and His Messengers, Cairo, House of Revival of Arab Books, 1950 AD, Part 1.

20- Al-Tabari, Muhammad Ibn Jarir, Jami al-Bayan fi Tafsir al-Qur'an, 2nd Edition, Cairo, Mustafa al-Babi al-Halabi Press, 1954, c12.

21- Ashour, Saeed Abdel Fattah and others, History of the Arab Islamic Civilization, 2nd Edition, Kuwait, Dar Al-Salasil Publications, 1986 AD.

22- Othman, Hassan, Methodology of Historical Research, 2nd Edition, Cairo, Dar Al Maaref, 1965 AD.

23- Architecture, Muhammad, Islam and Fine Arts, 1st floor, Cairo, Dar Al Shorouk, 1991 AD.

24- Ghoneim, Muhammad Ahmad, Medina, Alexandria, University Knowledge House, 1987 AD.

25- Al-Qurtubi, Abi Abdullah Muhammad bin Ahmad Al-Ansari, Al-Jami` Al-Ahkam Al-Qur'an, (Under: Muhammad Bayoumi), Al-Mansoura, Al-Iman Library, (Dr. T), part 10.

26- Lotfi, Abdel Hamid, Sociology, Cairo, 7th Edition, Dar Al Maaref, 1977 AD.

27- Le Bon, Gustav, Arab Civilization, (T: Adel Zaiit), 3rd Edition, Cairo, House of Revival of Arab Books, 1956 AD.

28- Madkour, Ibrahim, In Islamic Philosophy, Methodology and Its Application, 2nd Edition, Cairo, Dar Al Maarif, Egypt, 1968, Part 1.

29- Ibn Maskawiyyah, Abi Ali Ahmad Ibn Muhammad, Tahdheeb al-Moraq, (Tahd, Constantine Zureik), Beirut, American University Press, 1966 AD

30- Ibn Manzur, Abi al-Fadl Jamal al-Din, Lisan al-Arab, Dar Sader, Beirut, 2000 AD, Part 4.

31- The Arab Philosophical Encyclopedia, 1st Edition, Institute for Arab Development, 1986 AD, Part 1.

32- Bin Nabi, Malik, Conditions of the Renaissance, (T: Abdul Sabour Shaheen), Beirut, Dar Al-Fikr Al-Islami, 1979 AD.

33- Haroun, Abdel Salam, Editing and Publishing the Texts, Cairo, Al-Halabi Foundation for Publishing and Distribution, (d.

34- Hegel, George and them, Lectures on the Philosophy of History, (T: Imam Abdel Fattah Imam), Cairo, Dar Al Thaqafa for Printing and Publishing, (D. T), Part 1.

35- Wasi, Attia Fatah, Civilization and the Problem of the Term, Journal of the Islamic Call, No. 6

36- Yaqut al-Hamwi, Shihab al-Din Abi Abdullah al-Baghdadi, Dictionary of Countries, Dar Sader, Beirut, 1957 AD, Part 2.

37- Young, Kobler, The Impact of Cultural Islam on Christianity (T: Muhammad Khalaf Allah), 2nd Edition, Cairo, The Egyptian Renaissance Library, 1962.